الفصل السادس

السلع والشركاء
في عالم البحر الأبيض المتوسط
في العصور الوسطى

«شركاء الإنتاج السلعي ومشكلات التفسير»

كانت السلع والبضائع هي القوة الموجهة خلف التجارة أكثر مما كان عليه التجار. إن تحليل البضائع والسلع التي كان يُتاجر بها في الأندلس، يبيّن لنا دور أسواق الأندلس في الاستيراد والتصدير، وتبادل السلع في البحر الأبيض المتوسط. وسنناقش في الفصول الثلاثة التالية السلع في تجارة إيبريا الدولية، فاحصين أولاً التركيب ثم التوازن، ومحور التجارة واتجاهها في عالم البحر الأبيض المتوسط، وثانياً: فحص صادرات الأندلس خلال العهود الإسلامية، وأخيراً فحص الاستمرارية والمتبادلات في ضوء الصادرات الإيبرية بعد أوائل القرن الثالث عشر.

ولم نعثر على المعلومات عن البضائع في مصادر انموذجية اقتصادية مثل كتب الجغرافيا وقوائم التعريفات الجمركية، ورسائل الجينيزا والسجلات العدلية وحسب، بل في عدد أكثر من الأعمال المتخصصة في الزراعة والصناعة والطب والصيدلة.

كما تلقي الدلائل الأثرية الضوء على المواد المحولة من منطقة إلى أخرى، وعلى الرغم من أن هذه المعلومات لا تستطيع تحديد كمية البضائع المتداولة في موانئ الأندلس، فإنها تكشف عن أصناف البضائع، وتوضح أكثر، مظاهر النوعيات التجارية كما توحي كيف أن التبدلات السياسية والاقتصادية في عالم البحر الأبيض المتوسط الواسع قد أجبرت على حدوث التغييرات في الإنتاج والمبادلات التجارية في شبه الجزيرة.

وقد ألقت التحاليل السلعية في تجارة الأندلس الضوء على أسئلة واضحة، وغالباً ما اضطرب المؤرخون الاقتصاديون أمام عدم التوازن في تجارة العصور الوسطى بين العالم الإسلامي والغرب اللاتيني، بسبب وجود دليل أفضل عن السلع (مثل المنسوجات والتوابل والفخار والفلفل والمجوهرات والذهب) الداخلة إلى أوروبا المسيحية من دار الإسلام من حركة نقل البضائع في الاتجاه المعاكس. وعلى الرغم من أنه سبق واقترح أن أوروبا قد صدرت الدقيق والفراء والمعادن الخام إلى المشرق الإسلامي، فهناك القليل من الأمثلة الموثقة على نقل مباشر بين الغرب والشرق. وعندما أضيفت شبه جزيرة إيبريا إلى هذه المعادلة، وتم فحص مبادلاتها التجارية لزمن طويل، أضحت مشكلة التوازن أقل إرباكاً. ذلك أن الأندلس، كان مخزناً للتجارة، وموزعاً للسلع نحو الشمال في بلاد المسيحيين، ونحو الشرق في البحر الأبيض المتوسط الإسلامي، وخدمت شبه الجزيرة كنقطة ارتكاز للتجارة، وعدلت الميزان بين الشرق والغرب.

كانت التجارة الدولية الإسلامية في واقع الأمر تجارة بين البلدان الإسلامية في العصور الوسطى الباكرة، حتى القرن الثاني عشر على الأقل، وكانت تشمل المشرق والمغرب وإسبانيا المسلمة. ولم يكن التوازن التجاري يمثل إلا مشكلة ضئيلة في هذا المجال، حيث كان الأندلس يستورد السلع من المشرق الإسلامي، ولم يعوزه تصدير ما عنده. من جهة أخرى، كانت التجارة الأوروبية اكثر محدودية، وكانت بعض السلع تأتي إلى أسواق الشمال من العالم الإسلامي عن طريق إسبانيا المسلمة. ودخلت السلع

الأوروبية، بالاتجاه المعاكس، إلى المجال التجاري الإسلامي عبر القنوات الأندلسية. وهكذا فقد قدمت أسواق الأندلس صلة الوصل بين أوروبا ونظام البحر الأبيض المتوسط. وقد سُجلت هذه الشراكة من قبل عدد من المؤلفين في القرن التاسع والعاشر، بمن فيهم ابن خُرداذبُهْ وابن حوقل وليوتبيراند صاحب كريمونا Liutprand of Cremona، وقد لاحظوا جميعهم حركة النقل للرقيق الشمالي نحو المغرب وشرق المتوسط، انطلاقاً من الأندلس[1]. وإلى جانب ذكر ابن حوقل لتجارة الرقيق فقد ذكر تجارة العنبر والحرير والزئبق (عُطارد) مؤكداً واقع أن الأندلس قد كان له سلعه التي يصدرها إلى أوروبا والعالم الإسلامي. وعندما استقر محور التجارة الإسلامية في البحر الأبيض المتوسط، كان التصدير من أسواق الأندلس (سواء من أصل شبه الجزيرة أم من أوروبا) كافياً ليحفظ استمرار التجارة بين الشرق والغرب.

وغدت تجارة المتوسط أكثر تنوعاً في آخر العصر الوسيط عندما تبدل الشركاء التجاريون. وفي أواخر القرن الثالث عشر، عندما كان المتوسط تحت سيطرة الشحن البحري المسيحي، فإنّ أي خلل في الميزان التجاري كان ينعكس لصالح أوروبا. ولم يكن هناك تبدل في البضائع نفسها، بل تبدلت طرق حركة المرور نحو الشمال عندما أخذت مجموعات التجار الجديدة على عاتقها نقلها الخاص. وقد اتجه النشاط التجاري الإيطالي والفرنسي إلى المنتجات المتنوعة في موانئ الأندلس. تلك البضائع التي نقلت بكثافة من مشرق المتوسط إلى غربه عن طريق المدن الإيطالية والبروفنسالية، كانت تنقل خلال الماريا وإشبيلية منذ وقت قصير. وبطريقة مماثلة، التوسع السكاني والمدني الأوروبيين، وكذلك النمو الصناعي قد زاد القوة الشرائية الأوروبية، وتبدلت الأذواق. وقد لاحظ لوبيز، ما لا يمكن تفاديه قائلاً «إن

(1) Ibn Ḥawqal, Kitāb surat al-ard ed. J.H. Kramers, Leiden, 1938, p. 97; Ibn Khurradadhbih, Kitab al-masalik wa al-mamalik. ed. M.J. de Goeje, BGA, 2nd edn, VI, Leiden, 1967, pp. 153-5; Liutprand, Antapodosis. in Opera, ed. J. Becker, MGH Scriptores in usum scholarum, Hanover-Leipzig, 1915, VI, 6, p. 156.

مواد الرفاهية في الأمس تصبح متعة اليوم وضرورة في الغد»[2]. ومع ازدياد الطلب في الداخل، توقف التجار الإيطاليون عن جلب التوابل من أسواق الغرب الإسلامية في الأندلس وشمال أفريقيا، وذهبوا مباشرة إلى الإسكندرية عوضاً عن ذلك.

إن التبدلات السكانية والسياسية داخل شبه جزيرة إيبريا قد أثرت على نماذج المبادلات وأنماطها. وفي آخر القرن الثالث عشر تبدلت أنواع البضائع في تجارة إيبريا وإنتاج المناطق، وتعدلت اتجاهات طرق التجارة عما كانت عليه في العهد الباكر. وبعد فتح إشبيلية، وبلنسيا وقرطبة والمدن الأندلسية الأخرى، صار للسكان المسيحيين الجدد في الجنوب مؤسسات اقتصادية ومهارات آلية ـ تكتيكية، واهتمامات بالإنتاج، مختلفة عن تلك التي لدى السكان المسلمين. وقد بقي بعضُ صُنَّاعِ الجرار الصلصالية في بعض المناطق المفتوحة، للحفاظ على بعض الصناعات، وانتقال المعارف التقنية ـ التكنولوجية، ولكن خروج المسلمين هدم الأشكال الإنتاجية القديمة في كل مكان، وفي الوقت نفسه لم يكن الأمر يتعلق بالإسلام في المناطق الشمالية، فقد تطورت صناعات جديدة لم يكن لها نظير في الأندلس. وفي غرناطة أيضاً، تأثرت التجارة والصناعة بالأحداث الخارجية رغم استمرار الحكم الإسلامي. وبالنتيجة، لعبت الأسواق الإيبرية دوراً حقيقياً ومختلفاً في توزيع البضائع في آخر العصر الوسيط. كانت شبه الجزيرة مخزناً لتوزيع البضائع الإسلامية إلى أوروبا أو البضائع الأوروبية إلى المغرب والمشرق منذ أمد قريب. وعوضاً عن ذلك، فإن كثيراً من الصناعات والبضائع الجديدة قد تطورت في قشتالة وأراجون استجابة للتبدلات داخل شبه الجزيرة والطلب الجديد في شمال أوروبا وفي عالم البحر الأبيض المتوسط المسيحي.

وكان من نتيجة التقلبات السياسية أن ظلت جغرافية الأندلس ومناخه

(2) R.S. Lopez, The Commercial Revolution of the Middle Ages. New York, 1971, p. 91.

مؤثّرين على الدوام في حالة أو مظهر الدور التجاري في المناطق. وكان الأندلس أكثر حرارة وجفافاً من معظم أوروبا، وبارداً وماطراً أكثر من معظم العالم الإسلامي.

وكانت مميزات مناخه قد عُرفت واستغلت في العصور الوسطى. ولوحظت من قبل الجغرافيين المسلمين المعاصرين. وأصبحت في الواقع، مادة مشتركة لبعض الجغرافيين العرب للإطراء السخي على طبيعة الأندلس الإنتاجية ووصف شبه الجزيرة بالجنة[3]. وذهب ابن غالب بعيداً عندما قارن البلد بـ «الصين وجواهرها ومناجمها [و] بالهند وعطورها وعبيرها»[4]. وعندما تهددت غرناطة بخطر الهجوم في سنة 1125، علل مؤرخ بمغالات أقل، أن الغزاة قد انجذبوا إلى المنطقة بسبب «مميزاتها وخصوبتها من أجل الشعير والقمح والقنب وغناه بدودة الحرير والخمور والزيتون والثمار...» [5]. وقد تعزز إنتاج الأندلس المتنوع بواقع أن جنوب شبه الجزيرة كان محاطاً بعدة مناطق خضراء متميزة. وقد تسلسلت الأراضي من حول غرناطة، من القمم المغطاة بالثلوج في سيبيريا ونيفادا إلى السهول الساحلية الجافة، وساعدت على إنتاج زراعي واسع غير مألوف يبدأ من الحرير وينتهي بالسكر. وكانت البلاد (في شرق الأندلس) وعلى طول الساحل الشرقي مهيأة للري الواسع لحقول الزراعة في قشتالة huerte، جاعلة المنطقة شهيرة بثمارها وخضارها وأرزها. وتناسب منطقة الوادي الكبير في الجنوب الغربي الزراعة الريفية الأقل سقاية، والمعروفة بزيتونها وزيت زيتونها. وقد لاحظ الأدريسي هذا

---

(3) لقد ناقش جليك هذه الظاهرة في إسبانيا المسلمة والمسيحية ن:
Princeton, 1979, pp. 53-6.

(4) Ibn Ghālib, "Nass andalusi jadid qat'ia min kitab farha al-anfūs li-Ibn Ghalib," ed.L. 'Abd al-Badi, Majalla ma'had al-makhtutat al-arabiyya 1,1955,p.281. Himyari cited a similar passage La Peninsule ibérique au moyen âge. ed.E.Lévi-Provençal, Leiden, 1938. Arabic text,p.3; as did Maqqari (E. Lévi-Provençal, "La vie économique de I'Espagne musulmane au Xe siècle," Revue historique 167, 1931, p.306.

(5) Hulal al-mawshiya ed. I.S. Allouche, Rabat, 1936, p. 76.

قرب إشبيلية أن على المرء أن يمشي أربعين ميلاً «في ظل شجر الزيتون والتين»[6]. وكانت هذه المناطق الثلاث (غرناطة وشرق الأندلس والوادي الكبير) الأكثر ذكراً من قبل الجغرافيين بسبب إنتاجها الاقتصادي. وهناك مناطق أخرى، تظهر في حساب امتيازات طبيعة الأندلس ألا وهي أدوية الأنهار الخصبة وإنتاج أخشاب غابات الهضاب، والعروق الفنية بالزئبق والنحاس.

من جهة أخرى يجب أن نحذر من أن الجهد الزراعي المتساوي مع التجارة الدولية، كان لا يمنع الأندلس المنتج من أن يستورد بانتظام السلع الزراعية وخاصة الحبوب. ولم تكن المحاصيل المثمرة كافية دائماً في شبه الجزيرة للاحتياجات المحلية وخاصة في السنوات العجاف، هذا إذا تركنا جانباً تجميع الثروة من أجل التجارة الدولية. وقد كان هذا صحيحاً في العهد الناصري، عندما عولت مملكة غرناطة على الأغذية المستوردة على نطاق واسع. إن عزلة غرناطة في آخر العصر الوسيط قد كثفت هذه المشكلات التجارية، ولكن الاستيراد إلى شبه الجزيرة لم يكن شيئاً جديداً. فقد لاحظ الإدريسي في 1150 أن المراكب تأتي «من الأندلس إلى المنطقة جنوبي صالح sale (في مراكش) لشراء الأغذية [بما في ذلك] الحنطة والشعير والفاصولياء والحمص»[7] وفي نهاية القرن نفسه، وصف كتاب الاستبصار طنجة منطقة إنتاج الحبوب والأغذية للتصدير إلى إسبانيا المسلمة وإلى أجزاء أخرى من المغرب[8].

ولم يكن جميع الإنتاج الذي جذب انتباه الجغرافيين ناجحاً تجارياً للتصدير. ويقدم القطن مثالاً على الحاجة إلى الانتباه من التعارض بين

---

(6) Idrisi, Opus geographicum. V. Naples-Rome, 1975, p. 541.

(7) Idrisi, Opus geographicum. III Naples-Rome, 1972, pp. 239-40.

(8) E.Fagnan ed., L'Afrique septentrionale au XIIe siècle de notre ère; description extraite de 'Kitāb al-istibsar'. Constantine, 1900, p. 40.

المراجع، والحذر عند تحليل الإنتاج وحركة النقل. فقد ذكر الجغرافيون العرب نجاح زراعة القطن، وأشاروا إلى تجارة دولية للإنتاج، ولكن أخبارهم يمكن أن تكون ذا شأن في حال نقص المراجع عن حركة نقل القطن الأندلسي في المصادر الأخرى. ولكن الرازي يروي أن منطقة إشبيلية قد أنتجت «كمية كبيرة من القطن، حيث صُدّر إلى جميع البلدان وخلال البحر»[9]. وقد ردد جغرافيون متأخرون على وتيرة واحدة عبارات الرازي. فقد ادعى العذري أن «أرض إشبيلية فريدة ولها مواصفات خاصة . لا تجاريها بذلك أية منطقة . لنمو قطن مدهش... [وهو] متيسر في جميع أنحاء الأندلس، وأخذ كبضاعة إلى أفريقيا». وذهب ابن غالب بعيداً، وقال إن القطن الإشبيلي في نهاية القرن الثاني عشر «قد صدر إلى جميع أنحاء العالم»[10]. ومع ذلك فإن القطن الأندلسي لم يظهر في رسائل الجينيزا بوضوح، ولا في عقود العدلية اللاتينية. كما لا يوجد كثير من الأمثلة من المنسوجات القطنية الأندلسية. وعلى الرغم من أن إجماع الجغرافيين يوحي بأن الأندلس قد أنتج وصدر بعض القطن، إلا أن نقص البرهان المؤيد يطرح صعوبة تحديد أهمية حركة نقل القطن والتشويه أو التحريف في أي من المراجع[11].

---

(9) Razi, "La description de I'Espagne d'Ahmad al-Razi" ed.E.Lévi-Provençal, Al-Andalus 18,1953,p.93.

(10) 'Udhri, "Nusus' can al-Andalus," Tardi al-akhbar wa tanwi' al-'athar. ed.A.A.al-Ahwani, Madrid, 1960. p. 96; Ibn Ghalib, "Nass andalusi" p. 293.

وجدت الاستشهادات الأخيرة في «معجم البلدان» لياقوت.

Jacut's Geographisches Worterbuch. ed.F.Wustenfeld, Leipzig, 1873,I,p. 275; and Himyari, Peninsule, p. 21.

(11) من أجل المزيد عن القطن الأندلسي ن:

J.M. Millas Vallicrosa, "El cultivo del algodon en la Espana arabe," BRAH 139,1956,pp. 463-72; and L. Bolens; "The Use of Plants for Dyeing and Clothing: Cotton and Woad in al-Andalus," The Legacy of Muslim Spain. ed. S.K. Jayyusi, Leiden, 1992, pp. 1004-7.

وحول تجارة القطن في العصور الوسطى انظر:

= A. Watson, "The Rise and Spread of Old World Cotton," Studied in Textile

وتنشأ مشكلات أخرى عند تحليل بضائع التجارة الدولية الأندلسية. فمثلاً، وفي كثير من الحالات، ليس من الممكن، ومن خلال الشواهد المادية أو الكتابة تحديد ما إذا كانت السلع تنقل من مكان إلى آخر بالوسائط التجارية. ويمكن للباحث ان يفترض وجود وساطة تجارية، عندما تذكر الشواهد وجود تبادل تجاري، أو عندما تشير براهين خارجية إلى الطرق والتجار أو إلى بضائع تدعم احتمال وجود العمل التجاري. إن مصادر العصر الوسيط (ومن ثم المؤرخون الاقتصاديون المعاصرون) يتجهون إلى التركيز على بضائع الرفاهية أكثر من المواد المعيشية، إلا أن تقدير قيمة مواد الرفاهية يفتح الباب أمام إمكانيات وجود السرقة والضرائب، والهدايا وغير ذلك من القنوات غير التجارية. وفي واقع الأمر إن البضائع ذات القيمة المتدنية مثل الفخار والمواد الغذائية أو المنسوجات العادية تثبت أنها أدلة أفضل على العمل التجاري. وقد كانت الأنماط المختلفة وأنواع البضائع العادية قد أُنتجت في مختلف المناطق، ومن ثم ولّدت الحركة والطلب، ولكن ثمنها المتواضع واستعمالها اليومي يجعلانها أكثر قابلية لنصدق أنها نُقلت من قبل تجار وليس من قبل السفراء أو اللصوص.

وقد حدد لوبيز طريقاً آخر، يمكن فيه للمعلومات أن تؤدي إلى الضلال، ومن بين الأشراك التي تنتظر مؤرخ الاقتصاد: «يجب أن نبقى محترسين خشية الإشارة المتكررة للبضائع المشرقية في الغرب، والبضائع

= History in Memory of Harold B. Burnham. ed.V. Gervers, Toronto, 1977, p.360; and the chapter on cotton in Agricultural Innovation in the Early Islamic World. Cambridge, 1983, pp. 31-41. Also C.J. Lamm, Cotton in Medieval Textiles of the Near East. Paris, 1937.

وحول الإنتاج المسيحي:

M.Mazzaoui, The Cotton Industry of Medieval Italy. Cambridge, 1981; D. Abulafia, "Catalan merchants and the Western Mediterranean, 1236-1300," Viator 16(1985),pp. 215-17; S.Epstein, An Island for itself, Economic development and social change in late medieval Sicily. Cambridge, 1992, pp. 185-6.

الغربية في الشرق مما يغرينا بالمبالغة بكثافة العلاقات التجارية»[12]. إن الإشارة إلى مادة ما قد يدل على ندرتها أكثر من كثرتها، ومن الصعوبة الاعتماد على تقديرات رقمية أو كمية للمعلومات التجارية من العصر الوسيط فقط، وفي بعض الظروف، مثلما ذكرت سجلات جينيزا مئات من الرزم، البالة من القنب المرسل من مصر إلى الغرب سنوياً، إذ يمكن لنا أن نستنتج، بالمنطق، أن مادة ما قد اِتُّجِرَ بها بكميات حقيقية. وفي ذلك فإن دليلاً قوياً واحداً يثبت أن البضاعة متداولة تجارياً، حتى إذا بقي الطلب والكمية مجهولين. وعلى الرغم من أن تكرار الشاهد لا يستخدم لإثبات الكمية إلا أن ذلك ربما يخدم في توصيف الإجراءات التجارية. ولربما دَلّ ذلك، مثلاً، على أن بضاعة ما أو أن بعض الأنواع البلدية، قد اعتبرت أكثر أهمية أو رغبة من أخرى. وبصورة موازية، فإن ظهور اسم مادة في تركيب أو مصادر مختلفة (ترينا مَنْ نقلها، ومن باعها، وكم دفع من أجلها وأين، ومتى، وكيف انتقلت) وبالتالي يتبين لنا مكان المتاجرة بها ضمن اقتصاد واسع.

كذلك فإن أسماء البضائع في العصور الوسطى تستحق الانتباه والشك. فقد اشتق كثير من المواد أسماءها من أسماء مناطق إنتاجها، ويمكن لهذه الأسماء أن تقدم مفاتيح عملية لتعقب حركة السلع. ومع ذلك فإن الاتجاه إلى تعميم الأسماء الأقليمية خلال الزمن يمثل بدوره شركاً آخر لغير الحذرين. ويبدو بعيد الاحتمال مثلاً أن «الفاصولياء المراكشية» Pisos Mouriscos المزروعة في حقول كارولنجية، كانت في أي حال إنتاجاً مستورداً أكثر من الفاصولياء الفرنسية أو الشمندر السويسري أو الكرنب الصيني الذي نزرعه في حقولنا اليوم[13].

---

(12) R.S. Lopez, "East and West in the Early Middle Ages: Economic Relations," Relazioni del X Congresso internazonale di scienze storiche. Rome, 1955, III, p. 128.

(13) Capitularia regum francorum, ed.A. Boretius, MGH, Leges II.1, Hanover, 1883, p. 90.

وقد بدت سلع الجلود والنسيج الأندلسي أنها كانت تميل إلى أن تكون ذات نوعية شمولية. والمثال الأول هو القرطبي وهو الاسم الذي يطلق على الجلود المزينة والمذهبة، وكانت تنتج أصلاً في مدينة قرطبة ثم صنعت في أماكن أخرى من شبه الجزيرة أو خارجها. وهكذا أصبحت صناعة قرطبة شهيرة في أوروبا، حيث إن الإشارات إلى هذا النمط من الجلود في العصر الوسيط، يمكن أن نجده بعيداً في والس .Wales وإن استخدامه الواسع في معامل الأحذية قد ظهر لغوياً في التعبير الفرنسي cordounier (صانع الأحذية) وفي معادلها الانجليزي Cordwainer. وإن غزارة الإشارات إلى القرطبيين في سياق تجاري واضح غالباً، يحثنا على تصنيفهم بين المصدرين البارزين في الأندلس. ومع ذلك فإن ملاحظة لـ: جون صاحب جارلاند John of Garland كُتبت في باريس في سنة 1220، تؤكد الحاجة إلى الحذر في عزو هذه الصفات. فقد شعر جون بضرورة شرح أن كلمة cordevan تأتي من «قرطبة، وهي مدينة في إسبانيا، حيث إن [هذا النوع من الجلود] كان صناعة ممتازة»[14]. ويفترض تعليقه أن صانعي الجلود الفرنسيين كانوا ينتجون الجلود القرطبية في أوائل القرن الثالث عشر. وبصورة أصح، نعلم أنه في أواخر القرن الثاني عشر، فإن فريقاً من صانعي الجلود في پيزا قد كرسوا أنفسهم إلى: ars pellariorum vel cordovaneriorum[15].

وإضافة إلى ذلك، تابع القرطبيون إنتاج الجلود التي تحمل إسمهم في شبه جزيرة إيبريا كما أشارت إلى ذلك المراجع، وإلى جلود من فالدوليد Valladolid وبلنسيا في سنة 1230 و1240، وبقيت صادرات إيبرية خلال القرن الثالث عشر[16].

---

(14) John's commentary reads *cordevan, alio modo cordubanum, a Corduba, civitate Hispaniae, ubi fiebat primo.* See A. Scheler ed., "Trois traités de lexicographie latine du XIIe au XIIIe siècle," Jahrbuch für romanische und englische Literatur 6(1865),p. 296.

(15) D. Herlihy, Pisa in the Early Renaissance. New Haven, 1958, p. 138.

(16) = Valladolid: Documentos de la Iglesia de Santa Maria la Mayor de Valladolid

وتطرح مجموعة مصطلحات النسيج الأندلسي مشكلة من نوع آخر. ذلك أن الأندلسية حملت أسماء أجنبية، وكانت اتجاهات خلق مصنوعات مقلدة، أي حياكة المنسوجات في منطقة ما، على نمط تلك من بلاد أخرى، قد كان مألوفاً خلال عالم البحر الأبيض المتوسط. فقد ذكر الإدريسي دون تعليق آخر أن تقليد المنسوجات الحريرية من الجرجاني إلى الأصفهاني قد أنتج في الماريا[17]. ثم إن الحرائر الجرجانية التي طلبت من أب في عدن في القرن الحادي عشر من القاهرة من أجل جهاز عرس ابنته قد جاءت بسهولة من الأندلس أو من جرجان نفسها في جنوب شرق بحر قزوين[18]. وهناك تقليد آخر يدعى عتابي وهو حرير التفتة السميك، الذي وصفه جغرافي من القرن الثاني عشر بأنه مقلم بالأسود والأبيض مثل العتابي وهو حمار الزرد أو الوحش المخطط، قد كان أنتج أصلاً في بغداد ومن ثم صنع في مدن

(siglo XIII, 1201-1280). ed.M. Mañueco Villalobos, Valladolid, 1920, p. 198. = Valencia: A. Garcia, "Contractes comercials vigatans de principis del segle XIII," Ausa Vich 43,1963,p. 329.

(17) Idrisi, Opus, V,p,562. حول التقليد انظر: see C. Partearroyo, "Almoravid and Almohad Textiles," Al-Andalus: The Art of Islamic Spain. ed.J. Dodds, New York, 1992, p.105-6.

استمر تقليد التقليد للحرير في مجموعة مصطلحات النسيج الإيبري كما ذكر من قبل:

J.Alfau de Solalinde, Nomenclatura de los tejidos españoles del siglo XIII. Madrid, 1969, pp. 14-15. انظر أنماط المصنوعات الأجنبية المذكورة من قبل:

M. Martinez, Los nombres de tejidos en castellano medieval. Granada, 1989, pp. 251,294,306,450.

(18) West. College Frag. Cair. 9. See also, S.D.Goitein, A Mediterranean Society. [Berkeley, 1967-88] IV,p. 169.

ربما يُعزى تقليد الجرجاني إلى المنسوجات المحاكة بقصد تقليد مصنوعات من دشت Dasht وهي قرية قريبة جداً من جرجان. وقد اقترح أن *dulceriac/duxerias/doxtouies* الذي ظهر في وثائق القرن الحادي عشر من ليون Leon قد اشتق اسمه من أنسجة دشتي dashti وصنعت غالباً في إسبانيا المسلمة.

C. Sanchez-Albornoz, Estampas de la vida en Leon durante el siglo X. Madrid, 1934 ,p. 18.

أخرى، بما فيها الماريا[19].

وقد ذكرت رسائل الجينيزا العتابي من الأندلس، فقد روى ابن سعيد أنه كان قد صدر من مينوركا، وأنه ربما كانت الثياب البغدادية المذكورة من قبل ابن غالب بعلاقة مع الماريا، كانت أيضاً من هذا النمط من المواد[20]. وهناك سلع أندلسية أخرى، بما فيها أنماط من الفخار والسجاد قد قلدت بالطريقة نفسها التصاميم الفنية الأجنبية[21].

ليس التقليد مهماً بحد ذاته بل بما يكشف عن تجار البحر المتوسط. فقد كانت أصفهان وبلاد أخرى شرقية قد اشتهرت بمنسوجاتها، كما أن هذه المصنوعات الشرقية قد عُرفت وقدرت في العالم الإسلامي الغربي (حيث تم تبني الأسماء مثل أصفهاني. وخلال القرن الثاني عشر على الأقل، كان الحائكون الأندلسيون ينتجون نسخهم الخاصة من طراز أصفهان، من أجل البيع محلياً والتصدير. وقد سمحت الإنتاجية العالية لصناعة الحرير الأندلسي لهذا التقليد أن يُصنع بسعر ومواصفات تجعل منه سلعة شعبية في مصر حيث تدخل في تنافس مباشر مع النوع الأصلي. ومن جهة أخرى ليس واضحاً، إلى أي مدى كانت هذه المنسوجات مهيأة لتخييب آمال المستهلكين اعتقاداً منهم أنهم كانوا يشترون صناعة أخرى، أو إلى أي مدى صارت أسماؤها مفهومة على أنها أنماط أو نوع عام مألوف. إن عدم إطراء الإدريسي على جرجاني الماريا يفترض الخيار الأخير لكونه أكثر قابلية للتصديق. ومن

---

(19) Abu Ḥamīd al-Gharnati, "Le 'Tuhfat al-albab' de Abu Ḥamīd al-Andalusi al-Gharnati" [ed. and trans. G. Ferrand], Journal Asiatique 207,1925,p. 110.

يصف المؤلف حيواناً كان يعيش في أفريقيا وكان له «خطوط سوداء وبيضاء مثل ثياب عتابي».

(20) TS 13J 21.12; Ibn Sa'id in E. Fagnan ed, Extraits inédits relatifs au Magreb. Paris, 1924,p. 24; Ibn Ghalib, "Nass andalusi," pp. 283-4.

(21) لقد قلت أشكال وتصاميم الفخار بصورة واسعة في عالم البحر الأبيض المتوسط وما بعده. انظر حول هذه الظاهرة:

G.T. Scanlon, "Egypt and China: Trade and Imitation," Islam and the Trade of Asia. ed. D.S. Richards, Philadelphia, 1970, pp. 81-95.

الصعب اليوم التحديد بدقة أين حيكت المصنوعات الخاصة من العصر الوسيط، لأن التجار المعاصرين وزبائنهم عالمياً كانوا يعلمون غالباً ما إذا كانوا يتعاملون مع جرجاني من جرجان أو من الماريا.

وهناك عاملان آخران هما التحريم والسيطرة أو الاحتكار، يمكن أن يضيفا تعقيدات لتتبع حركة البضائع. فقد كان نقل بعض السلع في بعض الأوقات موضوعاً لعقوبات شرعية دينية أو حكومية قانونية. ولم تظهر البضائع ذات الطابع الحربي في الوثائق إلا نادراً بسبب تحريم نقلها، حتى إن الإشارات القليلة إلى انتقال أسلحة بين الأندلس والمناطق المسيحية هي خيالية. ففي سنة 974 مثلاً، ذكر الرازي أن جيش الخليفة الأموي قد استحوذ على «رماح حديدية إفرنجية» ولكن من المستحيل معرفة ما إذا كانت الرماح من طراز إفرنجي أو رماحاً من حديد إفرنجي أو رماحاً صنعت من قبل الإفرنج، أو كيف وصلت إلى الأندلس أولاً[22]. ومن جهة أخرى فإن الواقع الإقتصادي، وشهرة السلاح الايبري في العصور الوسطى (حتى اليوم لا تزال تعرف التعبير «نصال أو سلاح طليطلة»)، والتحريم المتكرر من البابوات والقضاة، يفترض أنه كان هناك المزيد من تجارة السلاح، وأكثر مما تلقاه عيون البحاثة في المصادر المكتوبة.

وقد كان لاحتكار الحكومة دور في تحديد المنافذ التجارية إلى السلع وتقرير حركة البضائع. وزيادة على ذلك فإن اتجاه الحكومات إلى إدارة الإنتاج ورقابته واستعمال بعض السلع يبدو أنه كان مألوفاً أكثر في العالم الإسلامي ولدى الإغريق الشرقيين أكثر مما هو عليه في الغرب اللاتيني. وقد نوقش، وبصورة خاصة من قبل لوبيز فيما إذا كان احتكار الدولة الإسلامية للمنسوجات الثمينة والذهب وورق البردى، يمكن ان يفسر الانقطاعات في تجارة البحر الأبيض المتوسط التي لاحظها بيرين Pirenne إثر الفتوح

(22) Razī, Anales palatinos del califa de Cordoba al-Ḥakam II. trans. E. Garcia Gomez, Madrid, 1967, p. 240.

الإسلامية في القرن السابع[23]. وفيما يلي من متأخر الزمن فإن فرض احتكار الدولة، لدى مماليك مصر، قد دَمَّر، بصورة حقيقية الشبكة التجارية للتجار الكريمي Karimi، وحولت حركة تجارة التوابل لصالح الخزينة الحكومية. ومع ذلك فإن الاحتكار وكذلك التحريمات لم تكن دائماً واقعية، كما هي الحال في المحاولات البيزنطية الفاشلة للحد من تصدير الحرير.

وقد ظهرت السيطرة أو الاحتكار الأندلسي في العصر الأموي أولاً، عندما نسبت التقاليد إلى عبد الرحمن الثاني (822 - 852) بدء احتكار «الطراز Tiraz والنقد، ومواد أخرى»[24]. ولعل الحبوب خضعت لبعض درجات الإدارة الرسمية بهدف تأمين التموين بها بانتظام. ومن خلال الرقابة والاحتكار، فقد أمكن للوالي مصادرة أو تأمين جميع المواد اللازمة لإنتاج مادة ما، ومراقبة تصنيفها وتوزيعها. وقد ذكر في لوائح أو تقويم قرطبة في القرن العاشر مثلاً مصادرات حكومية سنوية للمواد الصباغية والحرير من أجل صنع الطراز، وهو من خيوط مطرزة باسم الوالي وعهده وتاريخ الصنع ومكانه، وكتابات قرآنية[25]. وفي الزمن نفسه تقريباً وصف ابن حوقل نوعاً من اللباد الذي صنع في إسبانيا المسلمة من أجل السلطان خاصة[26]. وعلى اعتبار أنه استخدم كشعار لقوة الدولة فقد كان إنتاج الطراز وتصديره منتظماً أو مقيداً بدقة. ولم تكن الخيوط والأصباغ المستخدمة في صناعته موضوع فروض ضريبية حكومية وحسب، بل راقبت نوعية الإنتاج من قبل موظف حكومي مكلف يدعى صاحب الطراز[27]. ولم يكن الطراز بضاعة مثل أي

---

(23) R.S. Lopez. "Mohammed and Charlemagne: A Revision," Speculum 18,1943, pp. 14-38.

(24) F. Léve-Provençal, Histoire de l'Espagne musulmane. Paris, 1950-3, I, pp.256-7.

(25) Le Calendrier de Cordoue. ed. R. Dozy new edn. C. Pellat, Leiden, 1961,pp. 90,132.

(26) Ibn Hawqal, Kitāb surat al-ard, p. 114.

(27) M. Lombard, The Golden Age of Islam. Oxford, 1975, p. 82. See also A. Grohmann "Tiraz," Encyclopedia of Islam. 1st edn., Leiden, 1913-42, IV.2, pp. 785-93.

من أجل تاريخ ومواصفات أنماط هذا النسيج.

بضاعة (أي لا يمكن بيعها رسمياً)، ومن ثم فإنها لم تذكر أبداً بين المواد المتاجر بها مع بقية بلاد العالم الإسلامي، على الرغم من أن الولاة الأندلسيين قد أرسلوا قطعاً إلى الخارج هدايا دبلوماسية. وفي سنة 993 مثلاً، أرسل الخليفة هشام الثاني هدايا من الطراز إلى شمال أفريقيا، وبعد أربع سنوات، وزع حاجبه المنصور 285.2 قطعة قماش إلى حلفاء في شمال إسبانيا[28]. ولا توجد براهين موثقة تبين كيف أن هذا الاحتكار قد طبق بإحكام في عهد الولاة المتاخرين، مع أن إنتاج الطراز استمر بالتأكيد حتى أوائل القرن الثالث عشر.

وعلى الرغم من تنظيم الطراز الرسمي، فإن المصادر المسيحية الإسبانية ذكرت مراراً هذا النسيج وضمته قوائم التعرفة، وهو امر يفترض أن الطراز قد تاجروا به مثل أي نسيج مترف. وتشير هذه المراجع عن الطراز إلى الحاجة إلى الحذر من تقويم التنويهات المتناثرة وشرحها لما يبدو بضائع أندلسية في المصادر الشمالية. فهي ولا شك مواد منقولة، ولكن ليس بقصد التبادل التجاري غالباً، وخاصة في المرحلة الأولى من النقل. فعندما تذكر وثيقة بيع من كويمبرا Coimbra نظمت سنة 1090 إلى «قطع ممتازة من طراز قرطبي» tiraces bonos cordouses فقد كانت ولا شك صناعة جنوبية، ولكنها وصلت إلى الشمال هدايا أوغنائم أو ضريبة الباريا ولكن ليس بضائع تجارية[29]. وكانت قد بيعت في المرحلة الثانية فيما بعد فقط. ويبدو من المرجح فعلاً أن «طراز»، لدى اللاتين، يطابق أي شكل من أشكال النسيج الحريري في المعامل الإسلامية ولم يكن يحمل المعاني الرسمية كطراز

(28) Razi, Anales palatinos, p. 138; Maqqari, Analectes sur l'histoire et la litterature des arabes d'Espagne. ed.R.Dozy, Leiden, 1855-60. I, p. 271. من أجل المزيد عن طراز وأقمشة أخرى تحدث عنها الرازي في تاريخه E. Garcia Gomez, "Tejidos, ropas y tapiceria en los Anales de al-Ḥakam II por 'Isa Razi," Boletin de la Real Academia de Historia 156(1970), pp. 43-53.

(29) Portugaliae monumenta historica: diplomata et chartae. I, Lisbon, 1867, p. 443, #744.

العربي. ثم إن pannos tirazes المهداة إلى الكنيسة البرتغالية في 994، الـ almandra tiraze وذكرت في صك فباريز Charter of Viariz سنة 1053، وتضمن طراز tiraz sin oro أو con oro في سنة 1207 قائمة تعريف من طليطلة، كانت جميعها مطرزة بالحرير، ولكن ليس بالضرورة طرازاً خالصاً[30]. ربما كان بعضها قد حيك في شمال شبه الجزيرة كما دل على ذلك منحة قدمت من قبل الفونسو الخامس صاحب أوستورياس ت ليون Asturias-Leon 1028- 999 إلى ثلاثة مزراب عاملين في صناعة الحرير Tiraceros[31].

بضائع البحر الأبيض المتوسط والمستوردات الأندلسية

لقد أكد أبو الفضل الدمشقي في كتيبه عن التجار الحكمة في أن أي «تاجر يسافر، عليه أولاً وقبل كل شيء الانتباه إلى البضاعة التي يبيع» وعليه أن يطلع شخصياً على التدرج الدقيق في المواصفات، الطازجة، الخالصة، التنوع والسعر والوضع القانوني والمواصفات الأخرى لهذه البضاعة. وعليه أن يدرس الطبيعة العامة للأسواق، وأن يهتم بالبضائع التي ستؤدي إلى الربح. وقبل كل شيء عليه «ألاّ يضع ماله في بضاعة لا يستعملها الناس، لأن الطلب قليل على هذه [السلع]، ويبيعون ببطء»[32]. كانت تلك نصائح رائعة فقد كان التاجر يحتاج إلى فطنة في أعماله ومعرفة وذاكرة ممتازة كي ينال النجاح في العالم التجاري في العصر الوسيط.

لقد عمل بعض تجار العصر الوسيط في مختلف أنواع البضاعة:

---

(30) Portugaliae monumenta historica, p. 104, #168 and p. 234, #384. F. Hernandez, "Las Cortes de Toledo de 1207," Las Cortes de Castilla y Leon en la edad media. Valladolid, 1988, p. 241.

هذه عينة بسيطة من المراجع اللاتينية عن الطراز من أجل المزيد انظر:

F.May, Silk Textiles of Spain. New York, 1957, p.4.

(31) May, Silk Textiles, p. 5.

(32) Dimashqi, Kitāb al-'ashara ila mahasin al-tijara. Cairo, 1318/1900, pp. 51,58.

المرتفع الثمن، والرخيص حاجة كل يوم من الخام والمصنع، والمعبأ الموضب والمدمج المختلط. ولم يبيعوا إنتاج الصنف الأولي في كل نوع وحسب، بل الأصناف الأرخص من المادة نفسها. وكان نادراً أن يتخصص التجار، أو يحددوا تجارتهم في نطاق بضائع معينة. فقد تضمنت مراسلات ابن حوقل الغنية في القرن الحادي عشر مراجع عن ثلاثة وثمانين نمطاً مختلفاً وصنفاً من المنتجات. ووصف الدمشقي ستين مادة في التجارة، وضمن فرانسيسكو دي بلدوتشيو بجلوتي مؤخراً مئتين وثمان وثمانين بضاعةً في قائمته عن السلع المتيسرة في أوائل القرن الرابع عشر في فلورنسا[33].

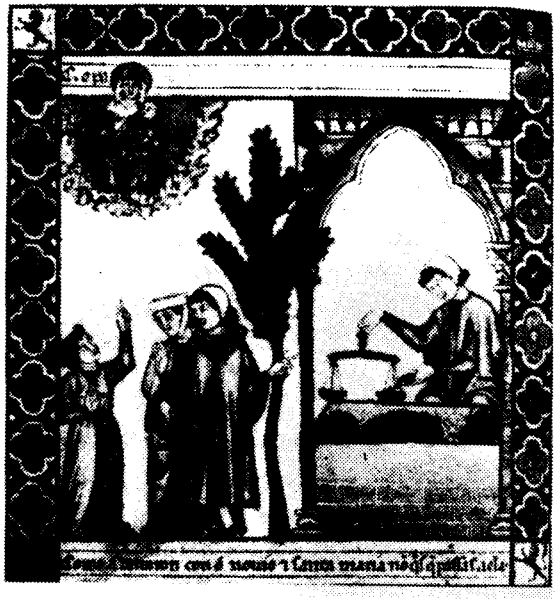

تاجر يزن التوابل. رسم صغير قشتالي من القرن الثالث عشر من:

Cantigas de Santa Maria, CV (courtesy of the Patrimonio Nacional, Madrid)

(33) N.A. Stillman, "The Eleventh-Century Merchant House of Ibn 'Awkal," JESHO 16,1973, p.27; Dimashqi, Kitab al-ashara, pp. 12-34; Pegolotti, La pratica della mercatura. ed.A.Evans, Cambridge, Mass., 1936, pp. 293-7.

إن قوائم البضائع لم تكن جديرة بالملاحظة في تنظيمها الدقيق، ولكن الدمشقي صنف المواد في قائمته وفقاً للنمط أو النوع الأساسي (مجوهرات وتوابل وأغذية وهكذا). وكان لهذا النظام ميزة حسنة في إجلاء الأمر. ولهذا فقد تبنيت مبادئه هنا. ولكن ليس نظامه أو تصنيفه بدقة لتوصيف أنواع البضائع المتُّجر بها في عالم البحر الأبيض المتوسط في العصر الوسيط. وباستثناء حالات خاصة، فقد انتقلت البضائع بِحُرِّيَة، ولا توجد براهين على تقييدات حركتها أكثر مما هو مفروض على السوق الاقتصادية.

وتغطي النقاشات التالية أصناف السلع العامة المستوردة إلى الأندلس؛ أما صادراته فستناقش في الفصل السابع.

تجار يتعاملون بالنسيج وسلع أخرى:

(Cantigas de Santa Maria, CLXXII, courtesy of the Patrimonio Nacional, Madrid).

التوابل

إن الدعامة الأساسية المشهورة في تجارة العصور الوسطى هي التوابل، وتتضمن أصنافاً عامة وعديدة، فهي تشمل العقاقير، والمنكّهات والعطريات، والأصبغة، واللواذع الكاوية. لقد غدت بعض المواد حقيقة بدهية في التجارة الدولية في العصر الوسيط، ذلك أنها تتطابق مع جميع متطلبات التاجر للبضاعة المثالية: وهي أن تكون خفيفة الوزن وصغيرة الحجم، وطلبها عالياً، وإمكانية الحصول عليها محدودة جغرافياً. إن القيمة الناتجة عن الفلفل والقرنفل والنيلة أو العنبر يجعل منها جديرة بمغامرة نقلها بعيداً وخلال مسافات طويلة. فالقرفة مثلاً انتقلت بانتظام من جنوب شرق آسيا، حيث تنمو، إلى أسواق البحر الأبيض المتوسط الغربية[34]. يضاف إلى ذلك إمكانية استخدام التوابل لأغراض عديدة، أو لأنها أصلاً متعددة الاستخدامات فقد استخدمت لتزكية الأطعمة، وتقدير بعض المواد الغذائية وحفظها، بما في ذلك وجع الأسنان والاكتئاب! . ولتعطير الجو والنفس والثياب. وكان الزعفران تابلاً للطبخ ومعطراً للأغذية على نطاق واسع. وينطبق الشيء نفسه على القرفة ولونها فقد استخدمت للعلاج المعوي الغذائي وكمنكّه ممتاز، وكذلك المر أو الصبغ الراتنجي الذي استخدم للتطييب والطب، وهناك مواد أخرى عديدة...

---

(34) تشير المصادر العربية إلى عدة أنماط مختلفة من القرفة وألوانها بما في ذلك القرفة العادية والقرفة الصينية. انظر على سبيل المثال الأقرباذين للكندي:

Kindi, The Medical Formulary or Aqrabadhin of al-Kindi. trans. M. Levy, Madison, 1966, pp. 122,206,218 et al.

وكما ذكر P.Crone في مقاله:

Meccan Trade and the Rise of Islam. Princeton, 1987, pp. 253-63.

فقد كان يوجد نوعان من قرفة العصور الوسطى واحدة مثل ما نعرفه اليوم الهندية أو الصينية كنوع آخر، وبهار آخر يحمل الاسم ذاته من شرق أفريقيا. ن أيضاً:

N. Groom, Frankincense and Myrrh, London, 1981 chapter 5.

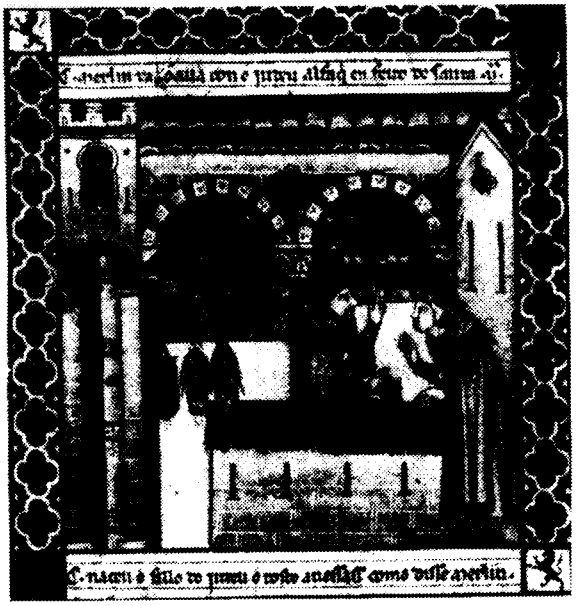

تجار يبيعون الفخار أو بضاعة في جرار فخارية:

(Cantigas de Santa Maria CVIII, courtesy of the Patrimonio Nacional, Madrid)

كانت معظم التوابل تستورد إلى الأندلس، حيث تجد سوقاً جاهزة ومستقرة. وفي بعض الحالات، مثل البخور من جنوب شبه الجزيرة العربية، فهو مادة من داخل دار الإسلام. إن كثيراً من التوابل يتاجر بها دولياً وتأتي من الهند أو الشرق الأقصى. وتشير المصادر إلى أن التوابل ومن مختلف الأنواع كانت تباع وتشرى في أسواق الأندلس.

وقد ضَمّن السقطي في كتابه عن الحسبة في أوائل القرن الثالث عشر قسماً مطولاً عن التوابل، ولكنه أشار إلى أنه من المستحيل تقديم لائحة كاملة بالمواد، فقد كان يوجد ما يزيد على ثلاثة آلاف نوع[35]. وتقدم كتب فن الطبخ الأندلسية معلومات عن استخدام التوابل في الطبخ، في حين تشرح

(35) Saqati, Kitab al-faqih al-ajall al-'alim al-'arif al-awḥad. Un manuel hispanique de hisba. eds. G.S. Colin and E.Lévi-Provençal, Paris, 1931, p.43.

الكتب الطبية الخواص العلاجية[36]. وبينت رسائل الجينيزا أن التوابل قد نُقلت إلى الأندلس، كما هي الحال عندما وصل مركب إلى الماريا في سنة 1138، حاملاً شحنة من الفلفل وشجر الصباغ أو العَنْدمْ وصمغ اللّك واللبان أو البخور وغير ذلك من المستوردات الغريبة[37]. وفي رسالة أخرى، ومن الفترة نفسها تقريباً، نعلم أن التاجر المصري هلفون بن نتانئيل، قد أرسل هدايا، تتضمن رزمة من كبش القرنفل إلى أصدقاء في لوسينا Lucena[38]. وتفترض هذه الهدية أن كبش القرنفل كان مرتفع الثمن في إسبانيا المسلمة أكثر من مصر، وربما كان العثور عليه صعباً. ومع ذلك، تشير مصادر أخرى إلى أن شراء هذه المادة (القرنفل) لم يكن مستحيلاً على أصدقاء ابن هلفون بسعر بلادهم. وكانت العقاقير الطبية المستخرجة من نباتات شبه جزيرة إيبريا قليلة، ولكن بعض المواد النادرة التي كان يصفها أطباء العصور الوسطى مثل البخور والقرفة وغيرها كانت مستوردة من المشرق، وفي كثير من الحالات، كان أصلها الأجنبي مذكوراً بصورة واضحة في الوصفات العلاجية، وهناك براهين نباتية تدعم تقريباً منشأها المذكور. وقد طلب الطبيب الأندلسي اليهودي ابن عزرا Ezra (توفي سنة 1167) مثلاً علاجاً موضعياً من شجر أو

---

(36) See Traduccion española de un manuscrito anonimo del siglo XIII sobre la cocina hispano-magribi. trans. A. Huici Miranda, Madrid, 1966; L. Bolens, La cuisine andalouse, un art de vivre: XIe-XIIIe siècle. Paris, 1990.

بين البحوث الطبية المراجعة من أجل هذه الدراسة هي:

S.K. Hamarneh and G. Sonnedecker, A Pharmaceutical View of Abulcasis Alzahrawi in Moorish Spain. Leiden, 1963; Ibn Ezra, Sefer Hanisyonot:

كتاب التجارب الطبية المنسوب إلى Abraham b. Ezra. ed. and trans. J.O. Leibowitz and S. Marcus, Jerusalem, 1984; Ibn Buklarish, El prologo de al-Kitāb al-musta'ini de Ibn Buklarish," ed. A. Labarta, in Estudios sobre historia de la ciencia arabe. ed. J. Vernet, Barcelona, 1980, pp. 183-316; Hindi, The Medical Formulary or Aqrabadhun of al-Kindi. trans. M. Levy, Madison, 1966; Moses b. Maimon, Glossary of Drug Names. trans. F. Rosner, Philadelphia, 1979; Ibn al-Baytar, Traite des simples. trans. L. LeClerc Notices et extraits des manuscrits de la Bibliotheque Nationale 26 (1883).

(37) TS 12.285.

(38) TS 8 J 18.2.

ثمر الأملج myrobalan الهندي أو الأفغاني في حالات تطلبت مطهراً أو مسهلاً[39]. وقد وصف أطباء آخرون القرفة الصينية. وهناك كثير من العقاقير بدون أسماء أجنبية ـ وهذه مشكلة عظيمة ـ مثل البخور أو اللبان Frankincense المأخوذ من قبل العالم الأندلسي ابن حزم في القرن الحادي عشر وكان مستورداً[40]. وظهرت دلائل على المستوردات في سياق آخر، عندما كتب تاجر من القرن الثاني عشر من فاس إلى الماريا يستعلم عن سعر السقمونيا Scammony أو نبات المحمودية وهو نبات من أسيا الصغرى ويُنتج الراتنج الصمغي، ويُباع هناك[41]. وذكر الزهري بعد ذلك أن الزرنيخ الذي استخدم دواءً وسماً «جُلب إلى بلاد الأندلس» من أفريقيا[42].

---

(39) Ibn Ezra, Sefer Hanisyonot, p. 147.

(40) Ibn Hazm, Tawq al-ḥamama. ed. T.A. Makki, Cairo, 1975, p. 32.

لم يذكر المعجم الطبي أدوية علاج خفقان القلب «كما وصف ابن حزم. وحول البخور انظر:

Groom, Frankincense and myrrh; and G.W. van Beek, "Frankincense and Myrrh in Ancient South Arabia," JAOS 78,1958, pp. 141-51.

(41) TS 12.435.

وصف الكندي السقمونيا لعلاج الحمى واليرقان؛

The Medical Formulary, y, p. 126.

(42) Zuhri, "Kitāb al-dja'rafiyya" ed. M. Hadj-Sadok, Bulletin des etudes orientales, 21,1968, p. 199.

ويذكر الكندي الزرنيخ لعلاج القرحات والآكلات.

Medical Formulary, pp. 50,90,98.

وصنفه روسنر كمطهر قوي في ملاحظاته إلى موسى بن ميمون في مسرده.

Moses b. Maimon's Glossary, p. 188.

تجار يبيعون رزم الصوف ويحملونها على ظهر المركب:

(Cantigas de Maria, XXV, courtesy of the Patrimonio Nacional, Madrid)

وتُبَيِّنُ الوصفات الطبية ورسائل التجار أن البهارات مثلها مثل الأدوية العشبية كانت في الواقع تستورد أكثر مما كانت مزروعة محلياً. وقد ذكر كتاب طبخ موحدي من القرن الثالث عشر، وصفات عدد من ألوان الطعام، وقد تضمن كثير منها عناصر تابلية أجنبية مثل القرفة والفلفل والكافور(43). وكان الفلفل من أشهر المنكهات المُتاجر بها في السوق الدولية خلال العصور الوسطى.

إنَّ صنف العطور المطلوبة من قبل العطارين الأندلسيين شملت مواد من أصول شرقية وغربية على حد سواء. وقد صُنف المسك والكافور والصبر والعنبر والزعفران كأول خمس مواد عطرية قد عُدت من قبل جغرافيي العصور الوسطى وتاجر بها تجار تلك العصور. وهناك عطور أخرى في المنتجات الشرقية مثل ماء الورد وخشب الصندل ونبات السنبل الهندي (أو ناردين أو سنبلة الطيب) والمر والبخور كان يتاجر بها على نطاق واسع ولكنها لم تحرز أبداً شهرة المواد الخمس وتفوقها. وعدا المسعودي في القرن العاشر إلى المقري في القرن السادس عشر، روى المؤرخون والكتاب أن أفضل المسك والكافور والصبار يأتي من الهند، في حين أن أفضل العنبر والزعفران قد صُدر من الأندلس(44).

وقد تناقش بعض المؤلفين حول أفضلية مواصفات الصبار الهندي (عود الند)، معلنين أنه يوجد صبار بلدي في مرسية Murcia «وهو يفوق الصبار الهندي في عبيره، وعطره وصفة شمه»(45). وقد قارن كثير من الجغرافيين

---

(43) Tradiccion española de un manuscrito anonimo, p. and passim.

(44) Mas'ud, Murūj al-dhahab, Les praires d'or, ed. C. Barbier de Meynard, Paris, 1861, p. 367; Maqqari, Analectes, I, p. 92.

حول العطور ومستحضرات التجميل ن المسعودي، مروج الذهب.

L. Bolens, "Les parfums et la beauté en Andalousie médiévale, XIè-XIIIè siècle," in Les soins de beauté. Actes du IIIe colloque international, Grasse, Avril, 1985, Nice, 1987, pp. 145-69.

(45) L. Molina, ed., Descripcion anonima de al-Andalus. Madrid, 1983, I, p. 12; = Qazwīni, Athar al-bilād wa akhbar al-'ibār. Beirut, 1380/1960, p. 503.

بمن فيهم الرازي والحميري الأندلسي بين هذه المعطرات فكانوا محابين الأندلس على الهند بإنتاجها[46]. حتى أن يهودا هاليفي أشار باهتمام إلى تجارة عطور الأندلس في أشعاره عن شبه الجزيرة، «نسيم شاطئك الغربي عبير... ورائحة النارديين على جناحيه... جذورك من خزائن التجار، وليس من ريح أقبية البيوت»[47]. وتؤكد مصادر أخرى وفرة المعطرات المحلية والمستوردة في الأندلس. وخلال القرن العاشر مثلاً، أوردت قائمة جرد لعبد الرحمن الثالث المواد الثمينة التالية وهي عشرة أرطال (إنجليزية) من الصبار الهندي ومئتا رطل من منوعات أخرى، ومئتان وإحدى عشرة أوقية (28,35غ) من المسك وثلاثمئة اوقية من الكافور وخمسمئة أوقية من العنبر[48].

وكان للصباغين الأندلسيين منفعة حقيقية في تجارة التوابل والأصباغ الدولية. كان يمكن لهم اختيار الألوان من أصناف واسعة، ومشتقة من مصادر مختلفة محلية وأجنبية. لقد استخرج الأحمر القاني والأرجواني من وسيط نباتي مثل الفُوّة (العروق الحمر) والعصفر وشجر الصباغ أو من المحار (حيوان رخوي) من أجل الارجواني الامبريالي، ومن الخنفساء من أجل صباغ قرمزي. وبصورة موازية يأتي الأصفر من الزعفران وجذر الكركم (زعفران هندي) والمُغْرة المعدنية؛ أما الأزرق فيأتي من النيلة والوسمة (نبات عشبي أوروبي)؛ أما الأسود والبني والأسمر فيأتي من الجوزة الصفراء المرة ومن جوز شجر الجوز. وقد اشتهر الأندلس بإنتاج بعض هذه المواد وتصديرها وخاصة الزعفران والقرمزي (qirmiz)، ولكنّ الصباغين الأندلسيين توجهوا إلى التجارة الدولية من أجل الأحمر والأزرق باستيراد اللّك وشجر الصباغ (العندم أو البقّم) والنيلة.

= ذكر معلومات مماثلة عن نبات الصبار. وهو نوع من الشجر العطري، وليس الصبار المر الذي استخدم لاغراض طبية. من أجل مزيد من النقاش See Crone, Meccan Trade, pp. 74-76, 267-9.

(46) Razi "Description de l'Espagne," p. 59; Himyari, Peninsule, p. 3.

(47) Jewish Poets of Spain, 900-1250. trans. D. Goldstein, London, 1965, p. 144.

(48) Maqqari, Analectes, I, pp. 299-30.

وعلى الرغم من توكيد المقري أن القرمز الإشبيلي كان «أعلى من اللّك lakk الهندي»[49]، فهذه المادة الأخيرة هي صمغ راتنجي يستخرج من شجر في الهند والشرق الأقصى وكانت تصدّر إلى الغرب لتنافس القرمز في أسواق الأندلس. وقد دلت رسائل الجينيزا أن اللّك كان مادة خام رئيسة من صادرات مصر إلى غرب البحر الأبيض المتوسط. وقد ذكر ميموس وهو من البيت التجاري المصري لابن حوقل صفقات تجارية من اللّك خلال أوائل القرن الحادي عشر كما ذُكر بيع اللّك[50] في رسالتين كتبتا في القرن التالي بين شركاء يهود في الماريا وشمال أفريقيا. كما شحنت كميات كبيرة من شجر الصباغ baqam (بقم) نحو الغرب من قبل مؤسسة ابن حوقل. وقد وصفت رسالة كتبت في مصر نحو سنة 1000 خلافاً حول شحنة من البقم إلى الأندلس. وأجاب الكاتب الموجود في القيروان ساخطاً على الاتهام بأنه أرسل بعض شجر الصباغ المخزن إلى الأندلس بقصد تحقيق ربح شخصي. وقد أنكر الحمولة ولكن السياق يُري أنه كان يمكن أن يكسب كسباً مرتفعاً من خلال شحن البقم إلى الأندلس. وذكر التاجر في آخر الرسالة نفسها أنه كان يريد ارسال قسم آخر من الصباغ «إلى الأندلسي بوكالة، ولكن بشرط أن أتحمل المسؤولية (لفقدانه)»[51]. ولاحظت رسالة خطية أخرى كتبت في 1060 من تونس إلى مصر ثانية، أن «شجر الصباغ يباع بالتدريج حتى يأتي أندلسي» تاجر فيشتريه[52]. لقد كان هؤلاء الأندلسيون يعتبرون أن تلهفهم لسوق بلدهم يبرر هذا الإنفاق.

لقد كان الصباغون في العصور الوسطى مدينين لنبتة النيلة لجمال وبريق لون صباغها الأزرق، في حين أن الرّسامين المعاصرين والفخاريين

---

(49) Maqqari, Analectes, 1, p. 128. استخدم الك في الطب وليس في الصباغ وحسب.

(50) Stillman,"The Eleventh-century Merchant House,"p.42; twelfth-century letters: TS12.435 and TS 13 - 14.21.

(51) DK 13؛ الترجمة من جوتين Letters, pp. 29-33.

(52) TS 16.163. See Goitein, Letters, p. 133. TS, 20.162, ca. 1080, ذكرت هذه الرسالة شحنة من شجر الصباغ إلى الأندلس.

والمزججين عليهم أن يلجأوا إلى المعادن . مثل حجر اللازورد لتنويع ذوقهم، بينما كان الصباغون تابعين للنيلة بصورة رئيسة وعلى (نيل البستاني) كبديل فقير أو على الوسمة. وكانت النيلة تصدّر إلى إسبانيا المسلمة، في حين أن الوسمة الأوروبية تنمو محلياً[53]. وقد عَدت مراسلات ابن حوقل ثلاثة أنواع من النيلة: الفارسية والفلسطينية والهندية[54]. وكَتَبَ أحد التجار المصريين عام 1050 عن إرساله نصف رزمة من الصباغ إلى الغرب «وصلت إلى الأندلس» ولكنه لم يذكر حتى النوع، «وقد تم تفتيشه هناك ولم يعثر على عفن أو نخر»[55]. وكتب تاجر آخر من فاس إلى الماريا في القرن الثاني عشر سائلاً شريكه «أرجو أن تعلم أن النيلة مطلوبة كثيراً هنا» ويمكن أن

---

(53) وكما ذكر المهندس الزراعي ابن العوام في (القرن الحادي عشر كانت الوسمة «نيل البستان» تنبت في مناطق كثيرة من الأندلس وقد سببت روايته انطباعاً خاطئاً أن النيلة «الهندية» كانت تنبت في الأندلس). «لابن العوام كتاب الزراعة».

d'Ibn Awam. trans.J.J. Clement-Mollet, Paris, 1866, 11,1, p. 125; W. Heyd.

وذكر «هيد» هذا المرجع كأساس ليؤكد أن الأندلس قد أنتج النيلة.

Histoire du commerce du Levant au moyen âge. Leipzig, 1885, 11, p. 628.

ولكن، بينت مصادر زراعية أخرى أن الوسمة وليس النيلة تنبت في الأندلس. كما أن: اللون الأزرق السماوي» المذكور في: Calendrier de Cordoue p. 132 كان غالباً وسمة، انظر:

Bolens, "Use of Plants for Dyeing and Clothing," pp. 1009-1010.

وانتجت الوسمة وصدرت من أوروبا وعرفت في جنوب فرنسا خاصة تحت اسم Pastel.

F. Borlandi, "Note per la storia della produzione e del commercio di una materia prima: il guado nel medio evo," Studi in onore di Gino Luzzatto. Milan 1950, I, pp. 297-326.

كانت هناك مصادر أخرى للأزرق في الأندلس وهناك مقطع من نص لمؤرخ مصري هو العيني توفي 1451 أنه كان يوجد منجم قرب إشبيلية حيث استخرج منه «مسحوق الكوبالت» الذي استخدم مكان النيلة كصباغ احتمالاً، ولم يعثر عليه سوى في هذا المكان من الأندلس حيث صُدر لاستخدامات الأصباغ.

See A. Zeki, "Memoire sur les relations entre l'Egypte et l'Espagne," Homenaje a Don Francisco Codera. Zaragoza, 1904, p. 464.

(54) Stillman, "The Eleventh-century Merchant House," p. 38.

(55) TS 12.226.

نفهم من ذلك أنه إذا لم تُبَعْ النيلة جيداً في الأندلس، على المتسلم أن يرسل كمية إلى فاس مباشرة.

ومن الناحية العملية لم يكن أي عامل صباغ يعمل لحسابه. فمن أجل تثبيت ألوانهم كان يجب استخدام الألوان مع مادة لاذعة أي مادة كيميائية تساعد على تثبيت لون الثياب. وقد استخدم كثير من المثبتات، وكان بعضها نادراً وغالياً، وبعضها (مثل البول) رخيصاً وجاهزاً إن المثبت البارز في العصور الوسطى كان الشب (ألمنيوم، بوتاسيوم، سلفات)، وكان لا يستغنى عنه كعنصر من عناصر تجارة الأصباغ في العصر الوسيط. وكان من أكثر المواد قيمة في الصناعة. وكان يُعثر على الشب في بعض المناطق، ومن ثم تبدأ أسواق دولية مهمة من أجل المعادن. وكان أفضل الشب المشهور يأتي من مصر وتشاد وغرب الأناضول، ولكن الطلب الدائم عليه يؤدي أحياناً إلى البحث عن مناجم أخرى وتصدير أنواع أدنى من صقلية وإسبانيا وشمال غرب أفريقيا[56]. وكانت جميع هذه المصادر معروفة في العالم الروماني، وسجلت من قبل بليني Pliny، ولكن يبدو أن إنتاج مناجم غرب المتوسط قد تضاءل خلال العصر الإسلامي. ولم يذكر الجغرافيون العرب الشب بين المنتجات أو الصادرات الأندلسية، ولم تذكر رسائل الجينيزا مصادر غربية له، بل كتبوا عن شحنات الشب المتوجهة إلى الغرب.

النسيج

لقد شكلت المنسوجات والخيوط الصرفة أصنافاً رئيسة من بضائع تجارة البحر الأبيض المتوسط في العصور الوسطى. «إنَّ أفضل التجارة هي بالنسيج» كما كتب المشبه بالجاحظ في القرن التاسع، وبقي تعليقه صحيحاً في تجارة الأندلس حتى أواخر القرن الحادي عشر[57]. لقد صنفت

---

(56) TS 12.435.

(57) Jahiz, Tabassur al-tijara. ed H.H. 'Abd al-Wahhab, Damascus, 1351/1932, p. 7. «تبصر التجارة» للجاحظ...

المنسوجات بين أفضل الصناعات المنتجة المنظمة في العصر الوسيط في الأندلس وفي أماكن أخرى. وجُهّزت الصادرات الرئيسة من هذه المواد لجميع المناطق[58]. الآلاف من رزم الحرير والصوف والكتان والقطن سُجّلتْ وشحنت خلال البحر الأبيض المتوسط في العصور الوسطى. وقد شكلت خيوط الحرير والحرير المصنع القسم الأعظم من النسيج المُصدر في الأندلس، يلي ذلك وبصورة متسلسلة الأنسجة الكتانية والقطنية والصوفية، ونوع خاص من النسيج المعروف بصوف البحر، كما أتجر بالسجاد والبسط الأندلسية على نطاق واسع.

وبين مستوردات النسيج، تلقت ورشات النسيج الأندلسية الكتان أو القنب من مصر والصوف الخام من المغرب. وكان للحرير قيمة عالية، وأتجر به وبالكتان وخيوط القنب بكميات كبيرة. وأتجر تجار الجينيزا بالحرير والكتان غالباً، ناقلين الحرير من الأندلس نحو الشرق إلى صقلية، والكتان من مصر نحو الأندلس غرباً. وتدل رسائلهم على أن المئات . حتى الآلاف . من رزم الكتان المصري قد شحنت نحو الغرب في كل عام، وكانت كل رزمة تزن ما يقرب من ستمئة رطل[59]. وذات يوم صار الأندلس يحوّل

---

(58) وقد عاين M. Lombard صناعة النسيج الإسلامية بما في ذلك الإنتاج في الأندلس في:

Les textiles dans le monde musulman. Paris, 1978. R.B. Serjeant's article, "Material for a History of Islamic Textiles" Ars Islamica 15,1951, pp. 29-61.

لوائح مصادر النسيج العربي. وتساعد بعض المسارد على التعريف بالنسيج في عالم الغرب الإسلامي وإسبانيا:

R. Dozy, Dictionnaire détaillé des vêtements chez les arabes. Amsterdam, 1845; M. Gual Camarena, Vocabulario del comercio medieval. Tarragona, 1968; J. Alfau de Solalinde, Nomenclatura de los tejidos españoles del siglo XIII. Madrid, 1969; M. Martinez, Los nombres de tejidos en castellano medieval. Granada, 1989.

(59) Goitein, Mediterranean Society, I, p. 226.

القنب المصري إلى نسيج كتاني، واكتملت الحلقة التجارية عندما أعادته معامل الكتان في بيتشينا Pechina ومناطق أخرى للتصدير، «إلى مصر ومكة واليمن ومناطق أخرى» كما ذكر ابن حوقل في القرن الحادي عشر[60]. لقد دامت هذه الشراكة خلال القرن الثاني عشر، عندما تعاقد تاجر جنوي لشحن أربعة وتسعين رطلاً من الحرير الخام وعشرة أثواب من الكتان الإسباني إلى شمال أفريقيا في 1161[61].

واستورد مسلمو إسبانيا الصوف الخام، وذلك بخلاف إسبانيا في العصر الروماني أو في العصر المسيحي فيما بعد، فالاقتصاد الأندلسي لم يكن ليركز على انتاج الصوف. وقد لاحظ الزهري أن الأندلس قد حصل على الأصواف من تلمسان، وتدل رسائل الجينيزا على شحن الصوف من مصر إلى الأندلس. وقد ألمح أحد التجار في رسالة من القرن الحادي عشر إلى شحنة صوف تزن خمسمئة رطل وثمنها ثلاثون ديناراً (مقارنة بالحرير الذي كان يباع بثلاثين ديناراً لعشرة أرطال في سنة 1050)، وكان ينوي إرسالها من الإسكندرية إلى إسبانيا المسلمة. فأجابه شريكه مباشرة ناصحاً إياه ألا يرسل «أي سلعة لأن صباغ [الصوف] الأرجواني لا قيمة له في الأندلس»[62].

---

(60) Ibn Ḥawqal, Kitâb surat al-ard, p. 114.

ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، لقد ذكر الجغرافيون العرب المتأخرون بما فيهم الزهري «كتاب الجغرافيا» وياقوت «معجم البلدان، ذكروا صادرات الأندلس من الكتان إلى الأقطار الإسلامية الأخرى:

Yaqut, Mu'jam al-buldan, 1, p. 227. و "Kitab al-dja'rafiyya," pp. 188-9

(61) Giovanni Scriba, Il Cartolare di Giovanni Scriba. eds. M. Chiaudano and M. Moresco, Rome, 1935, II, p. 4, #812.

(62) TS NSJ 197; TS Arabic Box 30.255. الرسالتان ترجمة جوتين Letters, pp. 233-6. من see TS 13 J 25.14 and Mediterranean Society, I, pp. 222-4. أجل أسعار الحرير

كانت المنسوجات الأجنبية، وكذلك الخيوط الخام متوافرة في الأندلس، إلا أن الشواهد التجارية قليلة. لقد ذكر ابن عبد الرؤوف «ثياباً من مجاس» (مراكش) في كتابه عن الحسبة في القرن العاشر، وكتب تاجر يهودي في تونس إلى شريكه في مصر في سنة 1020 ليقول له إنه أرسل «المنسوجات إلى الأندلس من بضاعة الأمانات [التي جاءت من مصر] [63] وكان من المألوف أن بعض أقمشة الجرجاني والأصفهاني وغيرها التي تحمل أسماء أجنبية تكون أصلية مستوردة أكثر منها تقليداً أندلسياً».

الأغذيـة

نادراً ما ظهرت الأغذية بضاعة مهمة في التجارة لمسافات طويلة، وهذا بعكس التوابل والمنسوجات. وكما لاحظ ابن خلدون، «إن أسعار المواد الغذائية الضرورية... منخفضة، وأسعار مواد الترف مثل التوابل... هي مرتفعة» ولكن كان هناك واقع مهم ألا وهو أنه لا يمكن نقل المواد الغذائية قبل فصل البرودة[64]. وقد أشارت كتب الحسبة إلى أنه، حتى المواد المباعة محلياً، كانت عرضة للتلف نتيجة التعفن أو ضرر الحشرات أو الرطوبة أو التجفف. وتصبح هذه المشاكل أسوأ في زمن الشحن لمسافات طويلة. من جهة أخرى كان البقال أو التاجر يلجأ إلى عدة تقنيات من تجفيف وتمليح وتدخين وتحلية بالسكر أو العسل، والتخليل والتتبيل لإطالة زمن استعمال المواد الغذائية التجارية، ما يجعل بالإمكان إرسال بعض الأطعمة في طول البحر الأبيض المتوسط وعرضه دون أثر ضار بالصحة[65].

---

(63) Ibn 'Abd al-Ra'uf, Risala in Documents arabes inédits sur la vie sociale et économique en occident musulman au moyen âge: Trois traités hispaniques de hisba. ed. E. Lévi-Provençal Cairo, 1955, p. 114; TS 8.12.

(64) Ibn Khaldun, The Muqaddimah. trans. F. Rosenthal, New York, 1958, II, p. 276.

(65) زادت أسعار السكر والتوابل والملح بسبب استخدامها في حفظ المواد الغذائية.

وقد اهتم قضاة الأندلس بالمشكلات الناشئة عن نقل الغذاء، وتُظهر أحكامهم فرقاً واضحاً بين الأطعمة الفاسدة أو السليمة. وقد أورد قاضي الجسيراس (الجزيرة) أبو الحسن الجزيري (توفي 1189) رأي العالم ابن حبيب من القرن التاسع، مسلسلاً تلك المواد الغذائية التي كان يمكن أن تنقل بأجرة (ضمان) المركب (أي أجهزة حمولة لم ينصب عليها العقد). ومن بين المواد الحلال كان القمح والشعير وحبة الدخن وحبوب أخرى: فاصولياء وحمص وعدس وخضار مجففة أخرى كالتمر والزبيب والزيتون وزيت الزيتون والعسل والسمنة، والخل والملح. وقد أُستبعدت الأغذية القابلة للفساد مثل الفواكه العصارة والجبنة والحليب وأنواع اللحوم والزبدة والفواكه الطازجة[66]. وعندما تذكر المصادر مركباً أو تاجراً ينقل الغذاء دون أن يحدد أي نوع معين فإن الإملاءات القانونية والحس التجاري المألوفين يدلان على أن الشحنة تتضمن غالباً أغذية غير قابلة للفساد[67]. ومن المؤكد أنه عندما تُعرِّفُ المصادر بالحمولة، فإن السلع المنقولة لمسافات بعيدة تتطابق غالباً مع إرشادات ابن حبيب.

وقد وصف برودل «ثالوثاً أبدياً» من الأغذية وهو «الحنطة والزيتون والنبيذ» كمميز أساسي لتجارة البحر الأبيض ومناخه. ولكن هذا الثالوث لم يكن مركزياً في تجارة الأندلس[68]. وقد صنف زيت الزيتون فقط من

---

(66) Jaziri, Maqsud al-mahmud fi talkhis al-'uqud. Miguel Asin Institute, CSIC, Madrid ms. 5, fol. 55v.

(67) لقد استشير القاضي أبو عمران الفاسي (توفي 1038) من القيروان بأجرة مركب ينقل (الطعام) إلى الأندلس:

Ibn Abi Firas, Kitāb akriyat al-sufun. ed. M.A. Tahir, Cahiers de Tunisie 31, 1983, p. 50.

(68) F. Braudel, The Mediterranean and Mediterranean World in the Age of Philip II. New York, 1966, I, p. 236.

الصادرات الأساسية الدولية، وستناقش تجارته في الفصل القادم. وقد صُدّر الزبيب، أما النبيذ فلم ينقل في واقع الأمر وكانت المعلومات عن الحبوب أكثر تعقيداً.

وكان القمح والشعير وحبة الدخن الانتاج الرئيس لغذاء عالم البحر الأبيض المتوسط في العصر الوسيط. وهناك أدلة على حركة نقل من مستوى منخفض للحبوب، من جهة أخرى، إن معظم وثائق شحن الحبوب تخص أوقات الأزمات، ومن الصعب الحصول على نظرة عامة عن هذه التجارة عملياً. وبالتأكيد إن الحبوب كانت تزرع في شبه جزيرة إيبريا، وخاصة القمح (بالعربية قمح أو درمك؛ بالقشتالية أدرجما adargama) والسّرْغوم (نبات كالذرة ـ المترجم) (بالعربية ذرة وبالقشتالية الدورا aldora)، ولكن ليس واضحاً إلى أي مدى كان الأندلس مكتفياً بإنتاجه من الحبوب[69]. وطبقاً لـ: ليفي بروفنسال، فإن الأندلس قد أنتج كفاية من الحبوب حتى غَطّى احتياجاته الخاصة، باستثناء السنوات العجاف، ولكن لم يكن ذلك كافياً للتصدير. بالمقابل اقترح فرنيت أن يكون هناك استيراد

(69) إن انتقال التعابير العربية الزراعية والنباتية والتقنية إلى القشتالية كان مألوفاً جداً. وقد أنجز ر. دوزي R.Dozy قاموساً كاملاً لهذه الاستعارات اللغوية في مسرده عن الكلمات الإسبانية والبرتغالية المشتقة من العربية.

Glossaire des mots espagnols et portugais dérivés de l'arabe. Leiden, 1869.

ومن أجل المزيد عن القمح الأندلسي ن.

T. Glick, Islamic and Christian Spain, pp. 80-3; J. Vallve "La agricultura en al-Andalus," Al-Qantara 3,1982, pp. 275-81; and A. Watson, Agricultural Innovation, pp. 9-23.

وحول الاستهلاك والأسواق في الأندلس ن:

J.D. Latham, "Some Observations on the Bread Trade in Muslim Malaga, ca. AD 1200," Journal of Semitic Studies 29,1984, pp. 111-22.

مستمر للحبوب من شمال أفريقيا إلى الأندلس اعتباراً من القرن التاسع إلى القرن الرابع عشر[70]. وأخيراً كتب ابن حوقل في أوائل القرن العاشر أن تبرقا Tabarca، قرب وهران، Oran كانت «ميناءً تجارياً» ينقل الأندلس من خلاله السلع ومنه تُؤخذ (الغلال ghalal[71])، وفي القرن الثاني عشر أكد الإدريسي وآخرون على هذا الاستيراد المنتظم للأندلس من الحبوب المغربية، وكتب المحتسب ابن عبدون عن مراكب ترسو في ميناء إشبيلية حاملة شحنات من القمح[72].

من جهة أخرى هناك بعض الدلائل على تصدير الأندلس للقمح في بعض المناسبات، وخاصة في القرن العاشر والحادي عشر. وفي سنة 936، وطبقاً لابن حيان، أرسل عبد الرحمن الثاني ألف مد mudis من القمح والشعير إلى حليف في شمال أفريقيا. فإذا كانت أرقام ابن حيان صحيحة، فقد كانت شحنة ضخمة تقدر حالياً بثلاثة أطنان[73]. وفي القرن التالي، أرسل علي بن مجاهد وهو والي دينيا حمولة من «الأطعمة» غالباً القمح،

---

(70) E. Lévi-Provençal, L'Espagne musulmane au Xème siècle: Institutions et vie sociale. Paris, 1932, p. 162; R. Vernet, "Les relations cerealieres entre le Maghreb et la peninsule ibérique," Anuario de estudios medievales 10,1980, p. 325.

(71) Ibn Hawqal, Kitab surat al-ard, p. 78.

إن كلمة «غلال» ghalal تعني حبوباً أو قمحاً. ولكن يمكن أن تشمل محاصيل أخرى من الفاكهة أو إنتاجاً عاماً.

(72) Ibn 'Abdun, Risala in Documents arabes inédits sur la vie sociale et économique en occident musulman au moyen âge. ed. e. Levi-Provençal, Cairo, 1955, p. 47.

(73) Ibn Ḥayyan, Muqtabas. V, eds. P. Chalmeta, F. Corriente, M. Subh, Madrid-Rabat, 1979, p. 389.

mudi المد كان مكيالاً كبيراً ويزن حوالي 750 رطلاً.

J. Vallve, "Notas de metrologia hispano-arabe II," Al-Andalus 42,1977, pp. 61-122 and "Notas de metrologia hispano-arabe III," Al-Qantara 5,1984, pp. 162-67.

إلى مصر إثر مجاعة ألمت بها. ولم يكن هذا فعلاً خيرياً غير ذي قيمة، إذ نقرأ فيما بعد أن مركب ابن مجاهد عاد إلى دينيا محملاً بالمال[74]. وتذكر رسالتان من جينيزا قمح الأندلس. واحدة كتبت في سنة 1050، تذكر أن تاجراً باع الصباغ في الأندلس واشترى «قمحاً أندلسياً»، في حين تذكر الرسالة الأخرى، وهي بعد نحو تسعين سنة، شحنة من القمح نقلت من إشبيلية إلى طرابلس[75].

هناك نقطتان يجب الأخذ بهما تتعلقان باستيراد وتصدير الحبوب الأندلسية. فلربما كان الأرخص نقل الحبوب بحراً من شمال أفريقيا إلى مدن الساحل الأندلسي، من نقله براً من الداخل. ثم إن التجارة لم تكن نافعة أمام قدرة إيبريا على إنتاج الحبوب. من جهة أخرى، تشير النقطة الثانية إلى استيراد الحبوب بكثرة في القرن الثاني عشر. ولعل هذا التحول يعود إلى وضع حكام المرابطين والموحدين في شبه الجزيرة والمغرب وتشجيعهم تجارة حبوب موحدة، وإلى التقدم الحربي المسيحي نحو الجنوب واستيلائهم على مناطق إنتاج الحبوب الأندلسية في وادي دورا Duero من يد المسلمين. ومن المؤكد أنه في النصف الثاني من القرن الثالث عشر أجبر الواقع السياسي الناصريين في غرناطة على أن يرتبطوا بشمال أفريقيا بتموينهم بالحبوب، وقد نوه ابن سعيد الغرناطي (توفي 1286) بوصول مراكب إلى الأندلس محملة بالقمح التونسي[76].

---

(74) ابن الخطيب، كتاب العمال العلام Ibn al-Khatib, Kitāb al-'amal al-'alam. ed. E. Levi-Provencal, Beirut, 1956, pp. 221-2.

(75) TS 12.226 and TS 16.54.

لم أر الرسالة الوثيقة ولكن جوتين يشير إلى محتواها في حاشيته.

Geniza Laboratory, Princeton University, microfilm cards 007744 and 00765.

(76) ابن سعيد، كتاب بسط الأرض في الطول والعرض Ibn Sa'id, Kitāb bast al-arḍ fi al-tul wa al-'arḍ. ed. J. Vernet Gides Tetuan, 1958, p. 76.

وهناك مواد غذائية أخرى مسموحة ثبتت من قبل أبي الحسن الجزيري وظهرت بصورة متقطعة في مصادر عن التجارة الدولية. وتذكر السجلات الملح والسكر والعسل والجوز، ولكن يبدو أن التجارة في هذه المواد كانت ضئيلة، وتحددت في غرب البحر الأبيض المتوسط. وقد نقل الملح من إسبانيا المسلمة (خاصة من إيبزا (Ibiza) والمغرب إلى الجنوب لمقايضته بذهب غرب أفريقيا، لأنه كان يحلو للمغاربة والغرناطيين التنافس على التجارة الأجنبية[77]. وكان اللوز والفستق والجوز ينقل إلى أسواق الأندلس من شمال أفريقيا. وفي القرن الحادي عشر، يخبرنا البكري أن منطقة القيروان قد أنتجت فستقاً رائعاً، حيث وزعته خلال المغرب وإلى مصر وسجليمازا Sijilmasa والأندلس. وتظهر هذه المعلومة ثانية بعد قرن من الزمان في «كتاب الاستبصار» لمؤلف مجهول. ويذكر الزهري من جانبه تصدير الجوز من مراكش إلى المغرب والأندلس وإلى الروم Rum[78]. وتبين رسالة من جينيزا، كتبت سنة 1040 أن تاجراً أندلسياً قد نقل لوزاً مقشراً من صقلية إلى مصر، ولكن هذا اللوز ربما كان مزروعاً في شمال أفريقيا أكثر من أن يكون مزروعاً في بلاد هذا التاجر[79].

المعادن والجواهر

تشكل المعادن والجواهر صنفاً آخر من البضائع التي أتجر بها حول

---

(77) تبين المصادر العربية أن العسل المراكشي استورد إلى الأندلس في القرن الثاني عشر.
Zuhri, "Kitab al-dja 'rafiyya," p. 190 and Fagnan ed., Kitāb al-istibsar, p. 183.
على الرغم من أن السقطي قد لاحظ أن العسل المغربي أغلى في الأندلس من الأنواع المحلية.
Saqati, Kitāb al-faqih, p. 13.

(78) Bakri, Description de l'Afrique septentrionale. ed. M. de Slane, Paris, reprint 1965, p. 47; Fagnan ed., Kitab al-istibsar, p. 74; Zuhri, "Kitāb al-dja'rafiyya," pp. 188-9.

(79) TS Box 28.37.

البحر الأبيض المتوسط في العصور الوسطى. وهذا كان انتاجاً طبيعياً، متيسراً غالباً، ويتم الحصول عليه تقليدياً من المناجم (باستثناء المواد العضوية مثل المرجان واللؤلؤ والعاج). وكانت تجارة الأحجار الكريمة مثل الألماس والياقوت والزفير وما إلى ذلك سهلة نسبياً، وتتبع الطريق الموازية للبضائع ذات القيمة العالية والنادرة والخفيفة الوزن. ومثل قطع النقود، فقد وصلت بعض الجواهر الثمينة إلى أسواق البحر الأبيض المتوسط من الهند أو من الشرق الأقصى. وقد صنف أبو الفضل الدمشقي الجواهر بين تلك البضائع البطيئة الحركة «التي يجب ألاّ يستخدمها الناس [العاديون]»، ورغم الطلب المحدود للأغنياء فقد كان لها قيمة عالية لأن التاجر كان ينقل القليل منها في حمولته[80]. بخلاف الأحجار والمعادن مثل الرخام أو المعادن والأحجار غير الثمينة مثل الحديد والرصاص والقصدير فإنها كانت ذات حجم وثقل ولكنها كانت أكثر طلباً من الجواهر. كان بعض تلك المواد متوافراً في مناجم البحر الأبيض المتوسط. والحاجة العملية لهذه البضائع، في البناء والعمارة وشواهد القبور وصناعة الأسلحة والأدوات وغير ذلك، أدّت إلى دعم التجارة لها. وكان نقل المعادن الثمينة وخاصة الذهب والفضة من الأمور الأكثر تعقيداً، ذلك أن المعدن كان ينقل كمادة خام أو رمل أو غبار الذهب أو سبيكة أو كنقود.

ولأن مصادر هذه المعادن والجواهر تكاد تكون محدودة جغرافياً، لذا فإن تجارتها قد تبعت طرقاً لم تتبدل خلال الزمن إلا قليلاً. وكما هي الحركة العامة للتجارة، فقد انتقلت المواد المعدنية غير الثمينة من الغرب إلى الشرق في حين أن الجواهر انتقلت من الشرق إلى الغرب. وفي القرن الحادي عشر

(80) Dimashqi, Kitāb al-'ashara, p. 58.

مثلاً، تبين وثائق الجينيزا أن النحاس والحديد والرصاص والزئبق والقصدير قد نقل شرقاً، في حين أن الألماس والياقوت يأتيان من الغرب[81]. إن الجواهر ذات الأصل الحيواني، باستثناء بعضها، كان من الممكن تتبع آثارها. فالمرجان كان متيسراً في صخور سواحل شبه جزيرة إيبريا الشرقية وشمال أفريقيا، ولكن اللؤلؤ و cowries والعاج نقلا من الشرق إلى الغرب. وعلى الرغم من أن بعض اللؤلؤ المتدني كان يلتقط من طول الشواطئ الكتالونية، فقد كان التجار الأندلسيون يفضلون الأنواع الشرقية، سواء كانت كبيرة أم صغيرة[82]. وفي أوائل 1040 مثلاً، كتب شريك تونسي إلى نهريا بن نسيم في مصر آمراً: «إذا صدف وكنت في بازار الجواهر وهناك لؤلؤ صغير ورخيص... اشتر ما تعتقده أفضل، لأن [التجار] الأندلسيين جميعهم يبحثون عن ذلك الصنف». وبعد عشر سنين تقول رسالة مجهولة الكاتب أرسلت من الإسكندرية إلى القاهرة القديمة تطلب إناء لحفظ العين من «لؤلؤ عالية مواصفاته ورائج في الأندلس»[83]. وبعكس اللؤلؤ فإن الدلائل على تجارة cowries والعاج متفرقة. وهناك رسالة من تاجر في الهند في عيذب إلى ابنه في الإسكندرية مؤرخة في 1141 تتابع ذكر قائمة وتعليمات تتعلق بحمولته من البضائع الشرقية مرسلة إلى مصر وقد أضاف «بالنسبة لـ cowrie shells، إذا كنت تعتقد أنه أفضل أرسله [للبيع] في الأندلس»[84]. وقبل ذلك بسنة أو سنتين أي في سنة 1138، تلقى هلفون بن نتانئيل رسالة من زميل في إسبانيا المسلمة، يذكر فيها وفي الهامش أن بعضهم قد «باع العاج بخمسة دراهم [للأونصة/ وقية؟]»[85]. وقد دخلت تجارة العاج مجال البحر الأبيض

---

(81) Goitein, Mediterranean Society, I, p. 154.

(82) حول اللؤلؤ، ن: Bakri, Description, p. 129.

(83) Bodl b3.20 and TS 12.373.

(84) BM Or5566 D6. Also, Goitein, Letters, pp. 197-201.

(85) TS 13 J 18.19.

المتوسط من شرق أفريقيا عن طريق البحر الأحمر على الأغلب[86]. وما من شك أن هذه المادة كانت متوافرة في الأندلس، تدل على ذلك الصناديق العاجية المحفورة وغير ذلك من القطع المحفوظة في المتاحف المعاصرة.

لقد انعكست كثافة استخدام الذهب والفضة في أماكن رئيسة، ولكن الطلب العالي أدى إلى إنتاج ونقل ذي المواصفات المتدنية، وإلى تعدد طرق التجارة. وقد وصل الذهب إلى عالم البحر الأبيض المتوسط من عدة أقطار، ولكن مناجم غرب السودان (وهي الآن السنغال وبركينا وفاسو جنوب مالي وغرب نيجيريا) قدمت أشهر المناجم المنتجة. وقد تنشطت صادرات أفريقيا الغربية شمالاً وغرباً، حيث تدفق الذهب إلى المغرب ثم إلى شبه جزيرة إيبريا وأوروبا وشرق المتوسط. وفي القرن الحادي عشر خاصة، وعندما تمت السيطرة على طرق تجارة الذهب بصورة قانونية من قبل سلالات المرابطين والموحدين، كان لموانئ الأندلس دور مهم في توزيع الذهب الخام والنقود الذهبية إلى المناطق الأخرى من حوض البحر الأبيض المتوسط. ومقابل ندرة الذهب المنتج محلياً، كانت الفضة أكثر وفرة، وخاصة في شرق المتوسط. وقد استخدمت مناطق أصل المناجم لتتبع تدفق الذهب والفضة في تجارة المتوسط في العصر الوسيط، على اعتبار أن المعادن الثمينة (مثل السلع الأخرى) تتحرك من منطقة إلى أخرى حسب قيمة السعر. وقد نُقل الذهب شرقاً خلال طريق ينتهي في غرب المتوسط في حين تعلق الفضة باتجاه الشرق[87].

---

(86) M. Horton, "The Swaḥili Corridor," Scientific American, Sept. 1987, pp. 86-7; and A. Cutler, The Craft of Ivory: Sources, Techniques, and Uses in the Mediterranean World, AD 200-1400. Washington, DC, 1985, pp. 30-5.

(87) A. Watson, "Back to Gold - and Silver," Economic History Review 20,1967, pp. 1-34.

الفخاريات

إن الدلائل على انتشار فخاريات العصور الوسطى، سواء عن طريق التجارة أم عن طرق أخرى، قد لوحظ من خلال بضائع أخرى بداعي الدور المهم الذي كان لعلم الآثار وتاريخ الفن بتحليلها. ولأن الفخاريات قد انتجت على نطاق واسع فإن مؤرخي الفن وعلماء الآثار خاصة، كانوا نشطاء في تحديد تطورات الطرز والأنماط الفردية، للعمل على وضع سلم زمني وقائمة مرسومة بأنماط فخاريات البحر الأبيض المتوسط. وبكثير من الانتباه والتعاون، وصلوا إلى هذا المستوى من البحث إذ يمكن أولاً: تمييز أنماط الفخار حسب المناطق؛ ثانياً إن التحديد الجغرافي القائم على أساس النمط يمكن تحليله كيميائياً[88]. وثالثاً، يبقى الفخار سليماً خلال الزمن. وبقاء الأواني الفخارية سليمة يجعلها سهلة التأريخ أو أن الآنية هي نفسها مؤرخة، ما يجعل تأريخ الوسط الذي وجدت فيه سهلاً. يضاف إلى ما تقدم من أسس أن الفخار قد انتقل بعيداً وفي كل الاتجاهات مع التجارة. ومع أن قطعاً من الفخاريات قد انتقلت هدايا أو بوسائط أخرى، فإن اتساع نطاق انتشار الفخار يدل على حركة التجارة. وكانت الجرار منتشرة في كل مكان، وهي أنيقة ورخيصة وعملية وتنكسر بسرعة. وقد تكون ذات قيمة كأتاوة أو غنيمة أو لدفع أي شيء آخر. وإذا انتقلت، فهي تنتقل من أجل التجارة أولاً.

لقد أنتج الأندلس الفخار وصدّره. وكما سيناقش في الفصل القادم، فإن الفخار المستورد قد جاء من مناطق أخرى من العالم الإسلامي وما بعده. إن

---

(88) ذكر هورست J. Hurst أن عالماً ايطالياً هو T. Mannoni قد صنف عدداً من مصادر الفخار المميز في غرب المتوسط ويمكن معرفته بالميكرو سكوب وحتى بالعين المجردة.

"Spanish Pottery Imported into Medieval England," Medieval Archeology 21,1977, p. 72.

قطع السيراميك أو الفخار التي تعود إلى القرن العاشر وصولاً إلى الصين في عهد (سلالة سونغ 960 ـ 1279) قد عثر عليها إثر حفائر قرطبة والماريا الأثرية. وسواء أكان هذا الفخار قادماً من الصين أم أنه تقليد فارسي كما سبق وذُكر، فإنه قد سافر وانتقل بعيداً عن أفرانه[89]. ومن خلال انتقال أقل استعراضاً، فهناك كثير من الدلائل الأثرية التي تبين أن الفخاريات الفاطمية المصرية والمغربية كانت متيسرة في الأندلس[90] كما أن انتقال الفخار إلى الغرب موثق أيضاً كما هو الحال في رسالة من جينيزا التي تشير إلى شحنة من الفخار [مخفيات mukhfiyat] من أصول مغربية غالباً، والتي باعها تاجر مصري في الأندلس سنة 1137[91].

إن الأصناف الستة التي بُحثت أعلاه وهي التوابل والنسيج والأغذية والمعادن والجواهر والفخار، لا تستطيع أن تكون حكماً في منزلة البضائع

---

(89) J. Zozaya, "El comercio de al-Andalus con el Oriente: nuevos datos," Boletín de la asociación española de orientalistas, 5,1969, pp. 197-9; J. Zozaya, "Cerámicas islámicas del Museo de Soria," Boletín de la asociación española de orientalistas 11,1975,pp. 143-4; D. Whitehouse, "Chinese Porcelain in Medieval Europe," Medieval Archeology 16,1972,p. 69.

(90) J. Zozaya, "Aperçu général sur la ceramique espagnole" La céramique médiévale en Mediterranee occidentale. Paris, 1980, pp. 273-4; M. Jenkins, "Medieval Maghribi Ceramics. A Reappraisal of the Pottery Production of the Western Regions of the Muslim world." Ph.D. Dissertation, New York University, 1978, p. 130; G. Rossello Bordoy, "Un ataifor norteafricano: un ensayo de interpretacion iconografica," Sharq al-Andalus 2,1985,p. 194.

(91) TS 13 J 27.17.

هذه الرسالة كتبت من الأندلس إلى شريك في مصر وقد ذكر الكاتب أنه أرسل «سعر المخفيات» mukhfiyat أفهم أن معنى هذا أن هذه المواد قد نقلت إلى الأندلس وبيعت. وهذا الفخار جاء من أفريقيا غالباً، لأن دوزي ذكر أمثلة مغربية على كلمة مخفية.

Supplément aux dictionaires arabes. Leiden, 1881, 1,p. 387.

وفسر جوتين انتقال الفخار إلى جهات أخرى، وذكر أن «مخفية» كانت إنتاجاً غربياً، .Mediterranean Society, 1, p. 111

التي أتجر بها في عالم البحر الأبيض المتوسط في العصر الوسيط. ولكنها تعطي فكرة عن أنواع السلع المتيسرة للتجار الأندلسيين. وقد تعامل التجار ونقلوا أنواعاً أخرى من البضائع، بما في ذلك الفراء والجلود والحيوانات والرقيق والخشب. وهذا ما سيناقش في الفصل السابع مع صادرات أندلسية رئيسة أخرى، وفي الفصل الثامن الذي يفحص التبدلات والاستمرارية في تجارة إيبريا بعد سنة 1212.